وقفة مع قوله: يخادعون اللهَ

حدّثه غريب بتاريخ الثلاثاء ٩ ذي الحجة ١٤٤٢

لقد نزل هذا القرآن للناس كافة, من بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة, وهذا يعني أن آياته ليست مرتبطة بالأحداث التي نزلت فيها, أو القوم الذين نزلت فيهم وحسب, بحيث لا تتنزل على غيرهم, وإنما يعني أن آياته تتنزل على الحوادث المشابهة, وعلى الأقوام المشابهين لمن نزلت فيهم إلى قيام الساعة.

للأسف لمّا غرقت الأمة في بحر الظلمات, صار الناس يقرأون القرآن لا يُجاوز تراقيهم, ومن أراد منهم معرفة معانيه لجأ إلى كتب التفسير التي تربط له في أحسن الأحوال الآيات بمن نزلت فيهم, وهكذا يقرأ الواحد منهم الآيات وهو مطمئن أنها لا تعنيه, لأنها نزلت في فلان وليس هو, وهكذا لا يستفيد منها.

من تلك الآيات التي ارتبطت ارتباطا وثيقا بمن نزلت فيهم, قوله تعالى:

› وَمِنَ النّاسِ مَن يَقولُ آمَنّا بِاللَّهِ وَبِاليَومِ الآخِرِ وَما هُم بِمُؤمِنينَ۝يُخادِعونَ اللَّهَ وَالَّذينَ آمَنوا وَما يَخدَعونَ إِلّا أَنفُسَهُم وَما يَشعُرونَ۝في قُلوبِهِم مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُم عَذابٌ أَليمٌ بِما كانوا يَكذِبونَ۝وَإِذا قيلَ لَهُم لا تُفسِدوا فِي الأَرضِ قالوا إِنَّما نَحنُ مُصلِحونَ۝أَلا إِنَّهُم هُمُ المُفسِدونَ وَلكِن لا يَشعُرونَ۝وَإِذا قيلَ لَهُم آمِنوا كَما آمَنَ النّاسُ قالوا أَنُؤمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ أَلا إِنَّهُم هُمُ السُّفَهاءُ وَلكِن لا يَعلَمونَ۝وَإِذا لَقُوا الَّذينَ آمَنوا قالوا آمَنّا وَإِذا خَلَوا إِلى شَياطينِهِم قالوا إِنّا مَعَكُم إِنَّما نَحنُ مُستَهزِئونَ۝اللَّهُ يَستَهزِئُ بِهِم وَيَمُدُّهُم في طُغيانِهِم يَعمَهونَ۝أُولئِكَ الَّذينَ اشتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالهُدى فَما رَبِحَت تِجارَتُهُم وَما كانوا مُهتَدينَ۝مَثَلُهُم كَمَثَلِ الَّذِي استَوقَدَ نارًا فَلَمّا أَضاءَت ما حَولَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنورِهِم وَتَرَكَهُم في ظُلُماتٍ لا يُبصِرونَ۝صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ فَهُم لا يَرجِعونَ۝أَو كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فيهِ ظُلُماتٌ وَرَعدٌ وَبَرقٌ يَجعَلونَ أَصابِعَهُم في آذانِهِم مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ المَوتِ وَاللَّهُ مُحيطٌ بِالكافِرينَ۝يَكادُ البَرقُ يَخطَفُ أَبصارَهُم كُلَّما أَضاءَ لَهُم مَشَوا فيهِ وَإِذا أَظلَمَ عَلَيهِم قاموا وَلَو شاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمعِهِم وَأَبصارِهِم إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ ‹

[البقرة: ٨-٢٠]

فهذه الآيات عند البحث عنها في كتب التفسير نجدها تتحدث عن المنافقين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلاقتهم مع اليهود، ومن ثم فهي عند المتلقي خاصة بالمنافقين ساعتها، وهو غير مخاطب بها.

ولو أنه تأملها وشعر بالمسؤولية عنها وتدبرها، لوجد فيها من النور الكثير، وهذا ما سوف أحاول من خلال هذه السلسلة فتح بابه، راجيا من الله عز وجل السداد في القول والعمل، وذلك من خلال:

- الإيمان ليس مجرد دعوى
- يخادعون الله

الإيمان ليس مجرد دعوى

تبدأ هذه الآيات بقوله سبحانه وتعالى:

﴿ وَمِنَ النّاسِ مَن يَقولُ آمَنّا بِاللَّهِ وَبِاليَومِ الآخِرِ وَما هُم بِمُؤمِنينَ ﴾

[البقرة: ٨]

وهذا يعني أنه لا يكفي مجرد ادعاء الإيمان ليثبت بذلك الإيمان، فهم قد قالوا آمنا، ومع ذلك ليسوا للمؤمنين.

أي أن الإيمان ليس مجرد قول يقوله المرء وحسب، بل هو أعظم من ذلك، حيث أنه يتجلى في عمل يعكس ما في القلب من يقين.

إنه ليس لنا عهد من الله مسبق أن لا نكون ممن تنطبق عليهم الآية السابقة، فنحن نقول إننا مؤمنين كما يقولها أولئك، فما الضامن أننا لسنا مثلهم؟

في بقية الآيات تفاصيل أكثر عن هذا الصنف من البشر، سوف تجعلنا نعرف إن كنا فعلا نتميز عنهم أم لا

يخادعون الله

عند مواصلة الآيات نجد أن أول صفة في هذا النوع من الناس الذي يدعي الإيمان، وهو ليس بمؤمن، هي مخادعة أنفسهم، وذلك في قوله سبحانه:

﴿ يُخادِعونَ اللَّهَ وَالَّذينَ آمَنوا وَما يَخدَعونَ إِلّا أَنفُسَهُم وَما يَشعُرونَ ﴾

[البقرة: ٩]

ولنقف مع هذه الآية مطولا، فقد حملت إشارات بالغة الأهمية علينا التنبه لها حتى نتأكد من سلامتنا من هذه الصفات.

نظرا لكون هذه الآيات مرتبطة في وعينا بالمنافقين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإننا نركز على مخادعة الذين آمنوا، باعتبار أن المنافقين ادعوا الإيمان حتى يخدعوا المؤمنين وهم

في حقيقتهم يبطنون الكفر، وهذا صحيح ولكنه ليس كل ما في الآية، فالآية بدأت بأمر بالغ الأهمية وهو قوله:

يُخادِعونَ اللّهَ

فهذا الصنف إذاً لا يسعى لمخادعة المؤمنين وحسب، بل لمخادعة الله جل جلاله، لذلك الأمر أعقد من مسألة النفاق الذي يدعي صاحبه الإيمان ويبطن الكفر، وهذا ما يجب أن ننتبه له جيدا

لعل السؤال الأول الذي يتبادر للذهن هو كيف يخادع المرء الله؟

هل يوجد إنسان يعتقد أنه يمكن أن يخادع الله؟

بالطبع لا، فجميع البشر مقرون أنه لا مفر من الله إلا إليه، وأنه يعلم السر وأخفى، لذلك ليس بوارد أن يحاول هؤلاء مخادعة الله بالمعنى الحرفي للكلمة، وإن كانت حقيقة تصرفهم هو مخادعة لله، وهي في الواقع مخادعة لأنفسهم.

قبل أن نحاول فهم طبيعة هذه المخادعة، يجدر بنا التنبيه لفائدة مهمة في التعامل مع الوحي بخصوص ما يرد فيه من أسماء، فوحي الله هو الحق المطلق، ومن ثم فإنه يسمي الأشياء بحقيقتها المعبرة عنها فعلا، ولا يجاري الناس في تسمياتهم الباطلة.

بمعنى أنه إذا أطلق الناس على شخص كاذب اسم الصادق، فربنا لن يسميه الصادق وإنما يسميه الكاذب لأنه فعلا كذلك.

لقد اهتديت لهذه الملاحظة المهمة جدا في نصوص الوحي من تسمية رسول الله صلى الله عليه وسلم للرجل الذي كان يرتاده غلام أصحاب الأخدود الذي أطلق عليه اسم الساحر، بالرغم من كونه كان رجل دين مثله مثل الراهب ولذلك لم يستطع الغلام معرفة من منهما على الحق إلا بآية الدابة.

رسول الله صلى الله عليه وسلم سماه ساحراً، لأنه فعلا ساحر حين يقدم الباطل وكأنه الحق، ويصور الحق باطلا، لذلك ينبغي التنبه إلى هذا الأمر.

لقد قلت ما سبق لكي نفهم أن قوله تعالى:

يُخادِعونَ اللّهَ

وصف لحقيقة فعلهم، ولكنه ليس كما يتصورون هم، فلا إنسان يتصور أنه قادر على مخادعة الله سبحانه، فكيف هذه المخادعة؟

إن هذه المخادعة تكمن في تحريف مفهوم الإيمان من إخلاص الدين كله لله إلى إيمان يختلط بالشرك بالله كما سوف نرى لاحقاً

إن هذه المخادعة تكمن في اعتقاد أن الإيمان مجرد قول باللسان، دون العمل.

بعدما عرفنا ما سبق, سوف نعلم أن أغلب الأمة اليوم يمارس هذه المخادعة, حين يعتقد أنه بمجرد تلفظه بشهادة أن لا إله إلا الله, وأن محمداً رسول الله, صار مسلماً وانتهى الأمر.

فهؤلاء لا يختلفون بشيء عن أولئك كلاهما حرف معنى الإسلام, وحصره في ألفاظ مجردة.

وهم كأولئك إنما يخادعون أنفسهم وما يشعرون, لأن قولهم أن الإسلام مجرد قول, واعتقادهم ذلك, لا يغير شيئا من حقيقة الإسلام الذي رضيه الله للمؤمنين ديناً.

وقولهم أن الجهل عذر مقبول عند الله, واعتقادهم ذلك, لا يجعله مقبولا عند الله, ومن ثم فإنما يخادعون أنفسهم ويوم القيامة ينطبق عليهم قوله سبحانه:

﴿ هَل يَنظُرونَ إِلّا تَأويلَهُ يَومَ يَأتي تَأويلُهُ يَقولُ الَّذينَ نَسوهُ مِن قَبلُ قَد جاءَت رُسُلُ رَبِّنا بِالحَقِّ فَهَل لَنا مِن شُفَعاءَ فَيَشفَعوا لَنا أَو نُرَدُّ فَنَعمَلَ غَيرَ الَّذي كُنّا نَعمَلُ قَد خَسِروا أَنفُسَهُم وَضَلَّ عَنهُم ما كانوا يَفتَرونَ ﴾

[الأعراف: ٥٣]

أعاذنا الله من حالهم.

حتى لا أطيل عليكم, سوف أتوقف هنا وإن شاء الله نواصل في مقالات قادمة تدبر هذه الآيات العظيمة لنستنير بنورها ونسترحم برحماتها, سائلا المولى عز وجل أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه من قول وعمل آمين.